الضوء المفقود
قصة قصيرة

كتابة / سلمى رضا فؤاد

طفولة محطمة

كان مرتجفًا، قدماه لم تحتملاه ويداه مشدودتان، واقفٌ عاجزٌ عن التفكير. كان ذلك شجارٌ محتدمٌ بين والدايَه حتى وصلت الأمور إلى حد الاعتداء؛ فلم يستطع الوقوف أكثر، بل تدخل هو وأخوته. وكان الأصغر سنًّا بينهم،حيث كان يبلغ عشر سنوات، ولكنه كان ساذجًا، فلم يكتفِ بذلك فقط. بل أمسك بجيب بنطال أبيه وجذبه بكل ما أتى من قوة ، حتى تمزق بين يداه الصغيرتين ، وكان ذلك كالشرارة التي أشعلت النيران.

انزعج والده واندفعَ غضبه نحوه. وصفعه صفعه مؤلمة فقد على إثرها السمع لبضعة لحظات، وصاح في وجه الصغير قائلاً "أيها الأحمق!"

ثم جذبه بقوة خلفه نحو الغرفة، وألقاه بعنف على الأرض الصلبة، حتى ضربت رأس الصغير بالمنضدة. لكنها لم تكن إلا إصابة طفيفة مقارنةً بما حدث له بعدها. فهو لم يكتفِ بهذا القدر، بل بعد أن ألقاه، قام بإغلاق الباب بأحكام ، حتى لا يتمكن أحدٌ من إنقاذه.

ثم بدأ ينهال عليّه بالضرب المبرح،ولا كأنه طفلٌ ذو عشر أعوام. حينها، بدت الدنيا فى عيناه الصغيرة مظلمة ظلاما حالكا لا يرجى منها الاستيقاظ.

بعد مرور عشرة أعوام

أستيقظ على دقات الباب. ولكن هذه المرة كانت الدقات خفيفة ناعمة لينهض ببطئ من الفراش متجهاً نحوه ليستقبل والدته وعلى ثغره ابتسامة قد غابت منذ سنوات وقالت :"بنى اتمنى ان تكون حظيت بنوما هنيئا".

بقى واقفاً يمعن النظر نحو أمه و أجاب بصوت يكسوه الاشتياق :"امي اخبروني وانا اعمل انك توفيت كيف هذا وابتلع غصة في حلقه واستطرد قائلاً ولكنك حية أمامي الأن" ..

تبدلت ملامحها وتحولت الابتسامة لقلق والنظرة الحانية لشفقة وقالت :"حالك لا يعجبني أبقى بخير وانسى الماضي قد جئت لك اليوم لإزيل عنك الاشتياق ولكن ربما تكون الأخيرة لذلك سأطلب منك أن تنسانى أنا ووالدك بتلك الذكريات وتذكر حينما كنا سعداء."

وتابعت قائلة: "اتعلم، أنك تشبه أباك كثيرًا، بني، أنه والدك، وتعلم كم يحبك، ولكن كل منا لديه طريقة للتعبير عن حبه. ربما فعل ذلك من شدة حبه لك. كان يظن أن القسوة ستصنع رجلاً، كما لا تنسَّ أن المرء حينما يفقد أعصابه يجن ويكون كالأعمى لا يدرك ما اقترفه إلا حينما يعود إلى رشده."

فقلت: "بالطبع، أنا أحبه، وأنتِ تعلمين، ولكن كلما أنظر في المرآة وأرى تلك الندوب على يدي وجسدي من أثر ضربه اشتطاط غضبًا، وحين أقرر الذهاب لأعاتبه، أراه من بعيد وحيدًا مجروحًا. ربما يدفع ثمن قسوته الآن، ولكني في حيرة من أمري، ماذا أفعل له يا أمي؟"

قالت: "اذهب إليه يا بني، وانسَ الماضي، وتذكر أيامنا الجميلة. إنه طيب القلب، ولكن كما قلت حينما يغضب لا يرى أمامه، وحينما يهدأ يكون كالطفل الصغير الذي يخطئ ويصيب."

قلت: "فات الأوان، كان هذا ممكنًا قبل رحيلك، لكن اليوم صرت أكن له كرهًا شديدًا، ليس بسبب تلك الذكريات السيئة، وإنما بسبب أنه أخذك مني."

أجابت والدته بحزن وكأنها لحظات الوداع الأخيرة : "ليس صحيحًا، كنت سأموت في الميعاد على أي حال، بني. ليس لدي الكثير من الوقت، ربما هذه آخر مرة تراني فيها. لذا أتمنى أن تكون بخير، ودع الماضي يذهب، وتذكر أننا بشر نخطئ ونصيب أحيانًا، ولسنا ملائكة. ربما بعض الأشياء لا تُنسى، ومع ذلك تذكر حينما كنا سعداء مجتمعين كعائلة واحدة في ذات المنزل الذي شاهد الشجار والخلافات."

ثم بدأت في التلاشي أمام ناظريه، لم يعي ما يحدث، فحاول الإمساك بها كالمغفل، ولكن كانت محاولة فاشلة.

فأمه رحلت بلا عودة،كان أحمقا لدرجة تيقنه من عودتها غدًا مثل كل صباح وتحدثه كما اعتاد منذ أن توارت تحت التراب.

موهبة تحمل السعادة والبؤس في آن واحد

لديه موهبة عظيمة تحولت مؤخرًا لعبء كبير فكادت تؤدي به إلى الهاوية، فغابت عنه نفسه كما غاب الجميع.

كانت أحلامه لا يعيشها، وخياله متسع لدرجة الواقعية، لطالما أراد شيئًا حققه كان ناجحًا وقويًا، حتى أتت الحقيقة متأخرة. تكمن تلك الموهبة في نسج الخيالات الرائعة ودمجها بالواقع المرير. تلك الموهبة جعلته منذ صغره متهربًا، فحينما يريد أن يكون أباه هادئًا حنونًا يصنع من خياله ذلك الشخص. وحينما يريد من أخوته المشاركة يقوم بصنع أيضاً تلك الإخوة المتعاونة، وكان المؤسف في الأمر هو التخزين الزائد على هذا العقل الصغير.

فقد كان يستدعي تلك الموهبة في أوقات الشجار بين والديه و أخواته، كان يركض مسرعًا نحو غرفته ليختبي تحت فراشه ويتذكر تلك العائلة السعيدة التي صنعها فقد في مخيلته.

ولكن في النهاية، مضى صاحبنا محاولًا وقف ضجيج عقله كعادته التي اكتسبها منذ كان صغيرًا، إذ كان يتميز بصنع الخيال.

عندما كبر الفتى ووصل عامه العشرين، بدأ الأشقاء يتركون المنزل تباعًا، حتى بقى وحده مع والديه، وذلك مع تجنب مواجهة أبيه. كان يذهب في الصباح الباكر للعمل ويعود للمنزل متأخراً.

ثم توفيت والدته إثر أزمة قلبية بعد شجار عنيف مع والده. كان الخبر كالصاعقة، فعلى الرغم من قوة خياله، إلا أنه لم يفكر يوما بفقدان والدته، لا سيما وأنها الحقيقة الوحيدة في حياته تلك.

لذا قرر استدعاء موهبته بإقناع ذاته أن والدته ما زالت حية، فلم يذهب حتى لجنازتها ولم يشرف دمعة. قرر مغادرة ذلك المنزل للأبد بلا عودة، وانتقل ليعيش في مكان آخر بعيدًا عن المكان الذي ظل فيه حتى عشرين عامًا. لتعود الخيالات الكاذبة مجددًا، ولكن بطبيعة الحال.

تلك الفترة العصيبة جعلته يصنع خيالًا خصيصًا لأمه من شدة تعلقه بها، كان الأمر حقيقيًا إلى حد خطير.أصبح يراها في المنام بكل تفاصيلها وكأنها حية حتى الآن.

في تلك الليلة، توقفت عن المجيء.. وكان هذا مخيفًا. كيف لا وهي كانت معه، يبدو أن وفاتها لم يدركه إلا بعد مرور تسعة أشهر عندما اختفت وتوقفت عن الزيارة في الأحلام.

وأصبح بمفرده في منزل كئيب. بدأ الأمر يأخذ منحى آخر، حيث انغلق على نفسه بشكل غريب.

حتى في يوم ما، اقترح عليه أحد أشقائه أن يعود للعمل بعد أن تركه عند وفاة أمه.

يبدو أن شكله وثيابه وشعره المبعثر جعل شقيقه يدرك حجم المشكلة. وكيف وصل به الحال إلى منحدر مخيف.

وكان هو الشخص الوحيد الذي سأل عنه بعد مغادرته المنزل لفترة طويلة. ولكن بالنسبة للآخر، لكان شيئًا عظيمًا.

ولكن مع الأسف، تلك الأثناء كان إنساناً آخر كمن هُزِم في معركة مثيرة.. ليلعن أي شيء بعد ذلك، حتى وإن كان كوب القهوة مرًا، يلعنه وكأنه يراه معاندًا له مثل الباقيين. نزل الظلام على صاحبنا في منزله جالسًا شاردًا في لا شيء..

صدر صرير من الباب وكأن هناك من دخل، ولكن لا يهم إن كان لصًا أو قاتلًا فحياته لا تهم..

كان ذلك أخيه الأكبر، سأله: "لماذا الباب مفتوحًا؟ أتريد أن يأتي أحدًا ويسرقك؟" لكن صمت أنظر فى الأنحاء كان المنزل مظلم ليس به سوى أضاءة خافتة وها هو أخيه يجلس علي المنضدة بجوارها لذا صمت ولم يكمل واقترب من أخيه وجلس على المقعد المقابل له.

وسأله بأسى: "ما بك يا أخي، الا تريد مواصلة الحياة؟ أتظن أن أمي كانت ستسعد بحالك هذا أنها ميتة الان ومع ذلك كانت ستتمنى الموت على أن تراك هكذا .. عود لرشدك يا أخي قبل فوات الاوان؟"

قاطعه الاخير بسخط: "كفى عن هذا، أليست راحلة الآن؟إلم تعد تشعر بنا، أليس هذا ما تحاول أن تفهمني إياه؟ نعم، أنا أدركت أنها ميتة وأن الدنيا فانية.أنني هنا انتظر موعد رحيلي لها فحسب فلا ترهق نفسك بلا فائدة..

ولكن لماذا تلك الحياة عنيدة بهذا الشكل ."

بدأ صوته ينخفض وملامح وجهه تبدلت، وتابع بغضب: "قد قتلها والدنا، بل قتلنا منذ صغرنا، لو كان هادئًا ويصغي لنا بضعة لحظات فقط، ولا يلومنى ويسخطنا كل يوم، لما كان هذا هو الحال.

الجميع غادر يا أخي ولم يبقَ سوى سخطه وغضبه في ذلك المنزل، الذي تحول لمقبرة كبيرة له وحده، أهذا ما يريد فلينهئ به..

طرق رأسه حزنًا وتابع: "لم أدرك أن أبي قاسٍ سوى اليوم، لو علمت سابقًا لربما أخذت أمي وتركته منذ زمن..

دائمًا كنت أرى الآباء الآخرين يعاملون أولادهم وزوجاتهم باللين، وليس السب والضرب..

أين كنتُ أنا من كل ذلك؟ حتى آخر لحظةٍ كنتُ أحبُّ أبي ومدركًا تمامًا كم هذا الرجلُ طيبٌ مثلنا. حتى أثناء غضبه مع

أمي، كنتُ أتعاطفُ معهما الاثنين، لكن بعدما ماتت، أدركتُ أنه ليس كذلك، بل وهم في عقلي، متمنيًا أن تكون حقيقة. أنا لا يمكنني العيش في هذه الحياة دون أمي،اخي اذهب واتركنى اعلم أن ضميرك هو من أتى بك هنا ،ولكن لا تقلق علي أنا بخير"

"رد أخيه قائلاً: 'ماذا تعني؟ أتريد أن تموت حقاً؟ حسنًا، لكن حاليًا أعتقد أنه يجب عليك العمل حتى يحين وقت إجلك. ما رأيك؟'"

نهض الآخر ولم يرد، بل ذهب للنافذة وتطلع أمامه. وكأن لم يتحدث أحد منذ قليل.

فتابع أخيه وقال: "أظن هذا أفضل. على أي حال، ستبدأ العمل من الغد. فعلت لك كل شيء. فقط عند الثامنة، سيكون هناك شخص ينتظرك في الأسفل. اذهب ليفهمك طبيعة عملك."

واقترب منه وقال: "إلى أن يحين وقت إجلك." نظر في أنحاء المكان وتابع: "لطالما المكوث وحيدًا أسوأ ما يمر به المرء" وغادر.

بعد مغادرة أخيه، ظل واقفًا كما هو، وقال في نفسه: "يبدو منطقيًا .. إذا بقيت على هذا، سأموت بعد مائة عام. يجب أن أفعل كما قال، ربما أموت في حادث سير أو ما شابه."

أمل مؤقت وتجاهل معقد

في اليوم التالي ،غادر للعمل كما أخبره .وبالفعل ،وجد شخصًا ما ينتظره ،وذهبا معا حتى لم يتكلفا عناء معرفة أسماء بعضهما البعض.

وصلوا، وكان أول يومٍ مملاً إلى حدٍ كبير. فاليوم الثاني تلو الثالث، وبدأ الأمر يروق له. وقال: "أيعقل أن هناك شيئًا أنجزه؟" شعورًا جميلًا أن تكون ذو قيمة. نعم، حتى إن غادرت، سيأتي آخر. ولكن لا يهم، يكفي أن أفعل شيئًا يشعرني بذلك.

إلى أن تعرف على صديق في العمل، يبدو مثله، وهذا ما جذبه .. صامتًا طوال الوقت، تكاد كلمات تنفد قبل أن يتحدث.مؤمن بما يعمل .. مثلها كما تصور.

ظلت الأيام كما هي، مع تطور بسيط في تحسن نفسيته ولعله اقترب من تجاوز وفاة والدته.

ثم عرف صديق آخر كان على العكس منه. ثرثارًا إلى حد بغيض، لا يتوقف سوى بدخول المدير. حتى بدأ الملل يتسلل إليه.

وهو أفضل من يعلم معنى أن يعود ذلك الشعور السخيف مجددًا.. يبدو أن صديقه الصامت تآلف سريعًا مع الآخر وبدأ يتحدثون معًا في شتى المجالات وهو يعمل فقط متصنعًا أنه لا يبالى.

أما هما، أصبحت علاقتهما وطيدة بل أصبح بينهما أسرار يأخذون جانبًا بعيدًا عنه وكأنه نكرة ، رغم أنه يكره ثرثرتهم،

إلا أنه يبغض أن يتجاهله أحد.زاد الأمر عن حده وشعر أنهم تمادوا إلى حد السخرية منه، لم يعلنوا ذلك ولكن نظراتهم تكفي.

ومن ثم أصبح لا يطيق النظر إليهم إلى أن جاء مساعد المدير يومًا وقال له بسخط: "كنا نثق بك ونظنك أمينًا على عملنا، ولكن خابت أملنا أنت مطرود".

ظل واقفًا وكأنه لم يسمع شيئًا. وردد لنفسه ماذا قال ذلك الأبله؟

وعند مغادرته مكان العمل، وجد الصديقان ينظران له بسخرية ويضحكان فيما بينهما. كان الأمر سريعًا تمامًا كأي شيئ حدث له في السابق كموت والدته أو كفراق والده أو حتى إخوته ..

حقيقة، سأل نفسه عدة مرات ماذا فعل. هل اتخاذ قرار العمل او تهاونه مع البشر هو السبب؟

عاد إلى حيث الوحدة، مكانه المفضل، وكره كل شيء، وأولهم نفسه. ألهذا الحد البشر غير آمنين؟

عاود أخيه الأكبر الاتصال، ولكن هذه المرة لم يجب. كيف يفعل ؟وهو المسؤول منذ البداية.

هو من عاونه لحدوث ذلك، والآن أصبح أدنى من الصفر بفضل أخيه. فهذه المرة، كرامته كانت الثمن.

عاد الماضي ليطارده ويذكره أنه ما زال ضعيفًا ومرتجفًا تمامًا منذ كان صغيرًا، وإلا لما لم يتفوه بحرف بعد طرده أمام الجميع وكرامته بعثرت!

الصمت والهدوء كنز العالم

كان بحاجة للسكون بعد تلك الأيام المخيبة للآمال..

في عدة أيام فحسب، ظن أنه إنسان ذو قيمة، لكنه مخطئ مجددًا. لو كانت أمه حية، لذهب لها وأخبرها كم أن الحياة قاسية وأن الأيام ثقيلة لدرجة لا تقاوم.

ولسألها كيف يمكن أن تعاش الحياة؟

ذلك الشخص الذي حولنا في كل مكان بهيئته الهادئة وقلة حديثه ووجهه المألوف يحمل في طيات قلبه ما لا يرى!

لطالما اعتاد على ارتداء ذلك القناع المنافق بمظهر القوة والثبات، ولكن فى حقيقة الأمر خلفه إنسان ضعيف مهزوم لم يرد يومًا أن يصل إلى ما هو عليه.

وتتوالى أيام أخرى والحال كما هو، لا شيء جديد، فقط أيام تحسب من عمره كعداد لا يتوقف. حتى خارت قواه الجسدية والنفسية معًا، ومن ثم قرر الابتعاد عن صخب العالم بأكمله.

هذه المرة ترك العنان لقدميه وأخذت تذهب به عبر ممر فى ظلمات الليل إلى مكان ما مجهول لم يعرفه سابقًا لكنه راق له.. يكفي أنه بعيد عن صخب الأطفال وضوضاء الازدحام وتلك الأشياء المبعثرة هنا وهناك. كل هذا غير موجود الآن.

توقف بغتة في منتصف الطريق الفسيح وتطلع أمامه حيث الرخاء والسلام في الأرجاء الذي كان قد افتقدهما منذ زمن طويل..

ظل واقفًا طويلاً شاردًا في الظلام الفارغ أمامه، حتى بدأ

يتسلل إلى أذنيه صوتًا يهمس وكأنه إنسان يتحدث. اقترب أكثر من مصدر الصوت ورأى رجلاً ذو ثياب راقية ومميزة جالسًا على سياج بجانب الطريق مائلاً برأسه للأسفل

ويتفوه ببعض الكلمات الغريبة..

تردد كثيرًا قبل أن يذهب إليه، ولكن في النهاية فعل وقال: "سيدي، أأنت بخير؟"

نظر الآخر إليه وحاول السيطرة على جماح نفسه، ورد مرتبكًا: "لا، لا، أعني نعم، أنا بأفضل حال."

فعاد محاولاً عدم إزعاجه قائلاً: "حسنًا، إذا سأغادر."

وعندما التفت ليرحل، أوقفه الرجل وقال: "لحظة، لحظة، يا سيدي، أأنت من هنا؟"

فرد: "لا، يبدو أنني ضللت الطريق فقط."

قال الآخر بعفوية: "هذا أفضل، أقصد لا أقصد هذا.. أنا أيضًا ضللت الطريق، وأريد أن أعود إلي..."

قاطعه الرجل بغطرسة: "عذرًا، سيدي، قد ذكرت سابقًا أنني ضائع، وبالتالي لن أستطيع مساعدتك، فكلانا ضل طريقه!"

فقال الآخر: "نعم، لكنني لا أقصد ذلك الطريق، هل يمكن أن تكون صديقي لبضعة لحظات فقط؟"

رد الرجل بسخرية: "حسنًا، أفضل أن يكون لدي صديق مؤقت."

وتقدم تجاهه بخطوات بسيطة، نحو الرجل، وجلس بجواره يتطلع للأمام صمتًا معًا، كأنهما يأخذان نفسًا بعد ذلك الاحراج.

قطع الصمت الرجل ذو الثياب الراقية وسأل: "هل يستطيع المرء أن يتغلب على شيء خارج إرادته؟"

فأجاب الآخر بعدم اكتراث: "بالطبع لا."

ثم استكمل الرجل قائلاً: "وهذا ما يؤلم، أن كان الأمر بيده لفعل قصاره جهده لتحقيق غرضه حتى وإن أتت لحظات الضعف واليأس، سيكون أمامه بضعة لحظات أو حتى أيام للاسترخاء وتفريغ أحزانه بدلاً من نوبات تأتيه غصبًا عنه، اليس كذلك؟!"

انتظر الآخر أن يجيب ولم يفعل، فتابع قائلاً: "الواقع أن الأمر برمته خارج سيطرته." وعاد الصمت ثانية، وكان الآخر مستمعًا لما قيل بعدم اكتراث محدثًا نفسه: "يكفي ما أمر به."

حتى لا يحرج الرجل منذ قدومه، قطع الصمت هذه المرة وقال: "كيف وجدت هذا المكان؟"

فرد الآخر: "كنت بمفردي، وهذا نادرًا ما يحدث، فاستغللت الفرصة لأبتعد عن الناس وأتيت هنا بإرشاد من أبي. أليس ذلك أفضل، وأنت ما بك تبدو وحيدًا وغاضبًا؟"

رد الرجل مسرعًا لتغيير مجرى الحديث: "لا، ليس حقيقيًا، ولكن عذرًا، سيدي، ماذا تعني أن يفعل المرء شيئًا خارج إرادته؟"

فأجاب الآخر بحزن: "المرض.. المرض."

وتابع: "اتعلم، ربما لم يقدر أحدًا كيف يصحو ويغفو دون مصاحبة لآلام.. لو شعر به يومًا أو حتى لحظات، ربما كان فهم قيمة هذا الجسد الذي لا يشتكي من الآلام. أحيانًا أحلم بهذا وأتساءل لو كان لدي هذا الجسد، ماذا كنت سأفعل حينها؟ فأنا مريض ومع ذلك ناجح في حياتي المهنية والاجتماعية، ولكن ذاك المرض يشعرني بمدى الدونيا، وكأني مختلفًا عن الباقي ومفروض علي أن أعيش متحملًا إياه، "فنجاح لا يكفي مع هذا الجسد المريض، إنه يهددني بالموت بين الفينة والأخرى."

تحدث الآخر مع نفسه قائلاً: "لطالما هناك ثغرة ما في حياتي لم تكن ظاهرة بعد أتكون الصحة التي امتلكها ولكن ماذا فعلت به سوى السخط والتذمر طوال الوقت. صحيح أنني لم أتعافَ بعد من فقدان أمي أو خيبة أمل صديق، وأيضاً ندبات أبي التي تصاحبني، ولكن ما زال لدي هذا الجسد السليم. شعر بالارتباك للحظات وتذكر حديث والدته وأخيه."

بدت الكلمات تنثر سحرها على صاحبنا الذي كان ينتظر الموت لينتهي من عذاب لا يحتمل. ولكن اليوم أدرك أن هناك تحديًا أصعب، خاصة وأنه كان خارج إرادته.

عاد الآخر وتابع قائلاً: "ماذا عن هؤلاء الأفراد الذين قدر لهم حياة أخرى لم يرغبوا فيها، أولئك الذين يعانون بفترات واعدة مؤلمة لا يمكن حتى تأجيلها، وهم أحياء مدركين، وحتى وإن تأجلت يكون هناك خطأ ما وتصبح حياتهم على المحك. أنه أمر يصعب شرحه يا صديقي إلا لمن عانى منه، فهو يعد بمثابة عائق كبير يشبه بأن تنقص لحظات وساعات من عمرك بألم لا يطاق، مع اضطرار وقف سعيك لحين انتهاء النوبات، وهكذا تفكر بعد انتهائها. فما ستفعل وتنجز في الأيام المقبلة حتى قدوم أخرى؟"

اعتدل الآخر في جلسته والتفت ينظر للرجل بتركيز وتحدث قائلاً: "وماذا عن الآخرين الذين لا يعانون من أمراض ويتمتعون بالعافية؟ أتظنهم سعداء؟"

إجاب الآخر: "أنا أعرف أشخاصًا تعساء يتمتعون بالصحة والعافية، إنني أشفق عليهم حقًا، أنهم لا يقدرون قيمة الأيام وكأنهم ينتظرونها تمضي فحسب، بلا حلمًا أو أهدافًا."

عاد وسأله مجدداً: "أيكون صعب أن تعيش مريضًا لتدرك قيمة كل يوم بل كل ساعة أو لحظة من حياتك، أم أن تكون معافًا وتليها في عالم فارغ منتظرًا أجلك يحين بعدم اكتراث؟"

رد الرجل بعد تفكير عميق: "بالنسبة لي، أن أكون مريضًا، لأن

تلك التي تتحدث عنه ليست حياة. أمي تخبرني دائماً أن الحياة بلا هدف تصبح أيضاً بلا معنى، أنه إنسان يشبه تمامًا الحيوان يأكل ويشرب وينام. عذرًا على هذا المصطلح ولكني لا أراه إلا هكذا. كلما عانيت جسديًا أو نفسيًا سيكون هناك مذاق للحياة حتى وإن كان سيئًا. في ذلك ستشعر بقيمتك، فعندما تلتفت وانتظر لما حققت وترى الآخرين تائهين تعساء ستشعر بالفخر حتى وإن وصل إرهاقك إلى منحدر خطير. أما عن المرض بقدر ما هو سيء وأحيانا يصل لمرحلة صعبة جداً، إلا أنه يجعلك تقاتل وتشعر أنك محارب، حتى وإن هُزمت ستظل كذلك، فليس هناك شيء تفعله حياله."

"فعاد الرجل ليتحدث بأسى: "صديقي، بالنسبة لي، كما قلت، أن تحيا بلا هدف ولديك عافية، فهي أسوأ، لأن الأمر كان بين أيديهم وسيأتي يوما ويتساءلوا بخيبة أمل: "ماذا أهدرنا، كيف وصل بنا الحال هكذا"؟

أتعلم، يا صديقي، أنا ذلك الفتى الذي كان يطمح يوماً أن يكون في مكان آخر."

فابتسم الآخر وعاد يفكر مجدداً في حيرة: "هل لو كان معافي لكان قادرًا على تلك الأيام وأدرك قيمة الحياة كما يعلمه الآن؟" وعاد ينظر أمامه بشرود.

تحدث صاحبنا هذه المرة ببهجة مطمئنة: "أتعلم ربما كلانا سيء الحظ، وإن كان عندك أفضل مما عندي، فأنت بالرغم مما تعانيه تسعى وتقوم بدورك وتطارد الحياة. أما أنا عكسك فلا أواجه بل دائمًا أتهرب من الحياة. كنت أظن أن الحياة تطاردني، ولكن كان هذا قبل مجيئك. أنا من أولئك الذين يعشقون أن يقوموا بذلك الدور، دور الضحية والجلاد."

والتفت لينظر لذلك الرجل وتابع: "منذ كنت طفلاً، تمنيت أشياء كثيرة وأحلامًا زاهية، ولكن مع مرور الأيام وتزاحم المشكلات قد نسيت من أنا وماذا أريد. ربما مصادفة اليوم تجعلني أعود لذلك الشخص مرة أخرى."

وبدأ تدريجياً يتحول وجههم الشاحب لوجه مليء بالحيوية. فكلاهما ذكر الآخر بما لديه من نعم ولكن أرادوا من يذكرهم.

نهض صاحبنا فجأة، حسبه الآخر سيغادر، ولكنه وجدها يسير حتى وصل إلى منتصف الطريق الفارغ وأشاح بيده نحو القمر المضيئ وقال الآخر: "انظر إلى هذا الضوء. أتراه يا سيدي؟ أنها موجودة ولكننا لم نراها يومًا. هل تظن أنه قد يغير شيئًا من حياتنا؟"

رد الرجل الآخر وقال: "ربما، عندما تضيق الحياة بنا، يجب أن نبحث عن أبطال قصص لا يلومون الظروف ويخلقون الأمل من اللاشيء. اذكر أن شخصًا عزيزًا حذرني سابقًا من الألاعيب الحياة وقال لي أن هناك حقيقة حتمية في العالم وجدت حينما وحد البشر، وهي أن الجميع يعاني ولكن بطرق مختلفة ومع ذلك كل واحد يأخذ بقدر ما يتحمل.

فلا يمكن أبدًا أن يعاني أحد فوق طاقته. فكما أن الحزن يعطي مذاقًا للحياة، فإن السعادة تعقبه لتزينه بالألوان."

ردد صاحبنا: "نعم، الجميع يعاني، ولنأمل أن نكون من أولئك الذين يسعون بالأمل ولا يغوصون في ملذات ومشتتات الحياة."

عاد الرجل الآخر وقال: "صديقي، أعلم أن كل إنسان يحمل في قلبه ألمًا ما، ولتعلم أن حزني ونحيبي هذا ليس بسبب المرض، فأنا اعتدت على ذلك، ولكن ما يؤلمني حقًا هو تعب أمي. فهي تعييني على تجاوز النوبات، ولكن تعلم، عند رؤية الحبيب يتألم، فتتمزق أنت أيضًا معه. فما بالك بأن تكون

والدتك؟! لهذا طرحت السؤال: هل يستطيع المرء أن يتغلب على شيء خارج إرادته، حتى لا يعاني من يحبه؟! ربما عندما أتعافى، أدرك قيمة السعادة الحقيقية، ولكن كيف سأعوض أمي عن هذا العذاب؟"

رد صاحبنا: "الا يكفي أن تراك معافى وسعيدًا؟ الأم ليست مثلنا في تفكيرنا وعطاؤنا المحدود، فهي لا تأخذ وتعطي، تتحملنا بمشاكلنا وثرثرتنا.

صدقني، يكفي أن ترى من تحب سعيدًا. أنا لم أدرك هذا إلا برحيل أمي. لطالما سألتني عن حالي، وأخبرها أنني بخير، لكن لطالما تطاردني بهذا السؤال. وعلمت مؤخرًا أنها تعلم ما كان يدور في قلبي من آلام. لذا كانت تفعل ما في وسعها لتخرج من تحب من هذا الظلام. إنها تستقبل وتتحمل على نفسها لأجلنا نحن فقط، فقد ولكننا في النهاية لا نستجيب ولا ندرك قيمتها إلا عندما تغيب."

نهض الآخر من مجلسه ونظر إلى ذلك الصديق بنظرة وداع: "صديقي، اليوم وجدنا ذلك الضوء المفقود، ولنرى غدًا كيف ستكون حياتنا مع هذا الضوء. لنتقابل في القريب العاجل...

أتمنى لك حياة سعيدة، أيها الصديق."

الخاتمة

كلاهما غادر، أحدهما سار يمينًا والآخر سار يسارًا، ولكن بعد أن افترقا ووجدا هذا الضوء، هل حقًا ستتبدل حياتهم؟ خاصة في عالم مليء بالصدمات والاضطرابات والمشاكل التي لا تنتهي؟ هل يدرك المريض أن قيمتها تكمن في ذاته المليئة بالأمل وحب الحياة؟ والآخر، هل يدرك أن الشكوى ليست إلا بابًا من أبواب الشيطان؟

رسالة لك..

عزيزي القارئ، في نهاية المطاف، الضوء ليس مفقودًا بل مرئيًا بطبيعته الزاهية، ولكن العيب فينا نحن البشر لأننا نتعمد إخفائه قسرًا. ربما يكون السبب في ذلك هو الكسل أو المسؤولية الزائدة ، مما يضيع حياتنا هباءً دون أن نشعر، أو حتى لأننا لم ندرك بعد قيمة هذا الضوء المفقود.

حياتنا كبشر تتكون من بضع سنوات مقسمة إلى أيام متفرقة وعدة ساعات متواصلة .

ستمضي بالتأكيد، كما مضى اجدادنا بعضهم رحل بلا تأثير والبعض الآخر رحل جسده وبقى عمله فأيهما تختار هل الانعزال والتركيز على مشتتات الحياة أم الانفصال والتركيز على الحياة.